صبى يسأل : من اخترع المدارس ؟

بقلم الدكتور أحمد زكى

قلت للصبى : «فى هذا الشهر يذهب الصيف ، وينتهى البحر ، والعوم» ·

قال الصبى : «ثم ماذا ؟» ·

قلت : «تفتح المدارس» ·

فوجم ، ثم فكر ، ثم سأل : «من اخترع المدارس ؟ » ·

سؤال لا يسأله على هذا النحو ، وفى هذه المناسبة الا ذو ضيق · ضيق بالمدارس وذكراها ·

لم يكن الصبى غبيا ، ولم يكن متخلفا · كان الأول فى فصله ومدرسته، بل الأول فى منطقته ، وكأنه دائما · ولم يكن فى عامه الدراسى مرهقا فهو يراوح بين الدراسة واللعب · وله فى الرياضة البدنية جهود كسب منهـــا جوائز ، ومع هذا فهو يسأل ، وقد انتهى الصيف : من اخترع المدارس ··؟

ولست أحسب ، ولست تحسب يا قارئى ، أنه سأل هذا السؤال اعجابا بمن اخترعها ·

اخترع المدارس من اخترع المستشفيات :

وأجبته على سؤاله فى شىء من التفصيل ، اجماله أن الذى اخترع المدارس ، هو الذى اخترع المستشفيات ، واخترع الأسواق والبنوك ، ذلك الفكر الانسانى غير المسمى الذى لايألو فى المدنية التى اصطنعها تنظيما ، ولا يألو لها توسيعا · ويكثر الناس فتتغير أساليب كانت تنفع على قلة · والمدارس فى القديم كانت تتألف من أستاذ يحوطه ويلازمه عدة مـــن طلاب ، كانوا هم طالبيه ، وكانوا مريديه · ويتحلقوا حوله ، يقول فيستمعون ويسجلون ، وفى الذى يقول يناقشون · ويجتمع بهم عندما يريد ، فىساعة تتفق · ويدرس مايشاء لا مايشاؤون · وما كان لهم أن شاءوا · فهؤلاء كبار

(*) الهلال ، سبتمبر ١٩٥٧ ، صص ١٨ ـ ٢١ ·

(دراسات تربوية)

الطلاب · أما صغارهم فكان لهم المؤدبون ، يؤدبونهم فرادى أو مجتمعين ، يعلمونهم القراءة والكتابة والحساب ·

وكان التعليم قليلا ، وكان أكثره فرديا ·

ثم تجمع أهل العلم فى مساجد ومعابد ، فكانت هذه نواة الكليات والمدارس ·

ثم كثر الطلاب فكان لابد لجمعهم من تحديد مكان ، وتحديد زمان · وتشعبت العلوم فكان لابد من تحديد دراسات وبرامج ·

سمع الصبى هذا ، وأكثر من هذا ، ففهم ، وكأنه ارتاح ، ارتياح من يقول : لاحيلة ·

المدارس أشياء مصطنعة :

والحق أن المدارس من أقل الأشياء موافقة لطبع انسان ، وهى أقل موافقة لطبع صبى · تعلم ذلك ساعة الخروج من المدارس ، ساعة الانصراف كل يوم · يخرجون فى لهفة ، وجريا ، وفى عنف ، خروج من أطلق سراحه من بعد سجن · وهم على هذا الحال أقرب الى أشتباك فى نزاع · أعلم هذا لأنى أسكن بالمعادى فى شارع نصب فيه مدارس للصبية ثلاث ، اثنتان للبنين وواحدة للبنات · ويلذ لى مراقبتهم عند الخروج ، وبينهم ذوو الصدور المكلومة وهى تتنفس وتتوثب ، وتتهيأ لاشتجار مع أى شىء : مع أنفس مثلها ، فان لم تستطع فمع الحجر ، تأخذ به وتقذف ، ولاتبالى أين تقذف · بخار تراكم فى مرجل تحت ضغط ، فلابد من انطلاقه ، وكم انطلق فأصاب من حوله · ويشتجر صبية المدرستين ، لا عن خبث واضطغان ، ولكن عن فورة ، فيستعان ببعض حماة القانون · وأرى هذا فأضحك ، ولاتضحك الناظرة · وهى لاتضحك لانها ترى فيما جرى اختلال نظام ، وهى أحرص ماتكون على نظام ، وسمعتها الطيبة قائمة على نظام طيب · أما أنا فأضحك لأنى أرى أن المدينة هى التى اصطنعت المدارس ، وهى جندت الصبية فيها ، والتجنيد حبس ، والحبس للاجسام النامية كظم · والمدنية نفسها هى التى اصطنعت الجند لاقرار النظام · فلما استدعوا حماة القانون التقى نتاج المدنية مصطنع بنتاج مثله ·

ولست أعيب المدارس نظاما ..

ولست أعيب الجند نظاما ..

وانما أنا أفكر فى هذه المدنية الانسانية التى تتألف من نظم كلهـــا مصطنعة . وهنا أسائل نفسى ، ويسائل معى آلاف من البشر : هل تعيـــب المدنية ما فيها من اصطناع ؟

المدنية وأساليب الطبيعة :

أن تجميع الصبية هكذا فى المدارس ، وتوزيعهم على حجراتها ، وبقاءهم فيها يستمعون الساعة من بعد الساعة ، يتحكم فيهم عقربان يدوزان ، وجرس يدق ، احتر الجو أو برد ، واتفق مزاجهم فرادى أو لم يتفق ، ومال منهـــم للنوم فى بحر النهار على عادة الناس من مال أو صحا ، كل هذا شىء لـم يكن فى نظام الطبيعة الأول .

ولكن المدنية فى كل أساليبها خرجت عن هذا النظام الطبيعى الأول . حتى فى ضرورات الحياة الأولى خرج الانسان عن النظام «الحبيب» الذى بدأت به الطبيعة العيش .

ان الانسان لم يكن يعرف ما النار ، ثم اكتشفها . وقبل أن يكتشفها كان لايجد الدفء الا فى الشمس . وجهل ما الطبخ فكان يأكل اللحم نيئا فالنار استحداث مدنية ، والاستدفاء بها والطبخ ابتداع . ومن بنى الناس من يأكل الى اليوم الطعام غير مطبوخ .

والانسان بدأ الحياة عاريا ، لاثياب له الا الهواء . ثم هو استحدث الخيط واستحدث النسج . ومساكنه كانت الكهوف ، ثم هو استحدث الحجر ، واستحدث الآجر ، واستحدث الملاط ، وسكن . فليس فى مساكننا من أسلوب الحياة الأول شىء .

وشعر الانسان طال فوق رأسه ، وعلى وجهه ، فكانت اللحى والشوارب طبيعة . ثم استحدث الشفرة فحلقت ، وخلقت من الوجه صورة ينكرهـــا الانسان الأول .

الفطرة لاتعرف الدباغة والصباغة :

ومع هذا ، فمن الناس من ينسى كل هذا .

من الناس من تحدثه فى أمر شىء ، أو أمر عادة ، فلا يرضاها ، ويرضى نقيضها ، وكل حجته فى هذا أن يمتدحها بأنها أقرب الى الطبيعة وأقرب الى الفطرة ٠

وتبحث فى شئونه ، ولو كان بدويا ، فتجد أنه ما كان أبعده عن طبيعة وعن فطرة ٠

وتدعوه الى طعام ، وعلى المائدة السكين والشوكة والملعقة ، فيعمد الى أصابعه يغوص بها فى الطعام غوصا ٠ لماذا ؟ لانها الفطرة ، ولأن الله خلق الأصابع لهذا ٠ ويعجبنى قوله ان الله خلق الأصابع لهذا ، ولكن لاتعجبنى حجته بأنها الفطرة ٠ لأنى انظر الى سائره فأجد الحذاء ، وهو من جلد مدبوغ مصنوع ، والفطرة لاتعرف الدباغة ولا الأحذية صناعة ٠ وأجد الثوب الذى عليه من صوف أو حرير مصبوغ ، والفطرة لاتعرف الصوف والحرير ثيابا ، ولم تعرف ما الصباغة ٠ وشعره مقصوص فلو أنه آمن بالفطرة حقا لارسله ٠

ولست أدافع عن أكل بشوكة وسكين ، أو لبس صوف وحرير ، ولكن أدفع تلك الحجة التى كثيرا ما تضلل الناس ، لافى صغيرات الأمور ، ولكن فى كبيراتها ، فتمنع عنهم الخير بأن تكره اليهم المدنية بأنها شىء مصطنع ، فلا يسيرون مع أمم الأرض فى سبيلها ، فيتخلفون أفرادا ، ويتخلفون أمة ، ويسبق غيرهم والسبق سيادة ٠

انهم يتوقفون ويتخلفون ، وليتهم وقفوا عند فطرة ٠ أنهم وقفوا من طريق مدنية سار فيها أجدادهم على بعد خطوات كثيرة عديدة من فطرة للانسان أولى ٠ ووصفوا ما وقفوا عنده فى طريق هذه المدنية القديمة فطرة٠ تلبس عليهم الأمر فأخطأوا ٠

وقالوا هذا شرقى وهذا غربى ٠

وقالوا فى أسلوب مأكل أو مطعم أو مسكن ، أو عادات تعودها الانسان فى شتى بقاع الأرض ، أن هذا شرقى وهذا غربى ٠

وحمدوا الشرقى لمجرد شرقيته ٠ وذموا الغربى لمجرد غربيته ٠

والغرب تكره فيه ساسة ، وهو يكره سياسة ، لاشك فى هذا بل هو فى هذا يمقت مقتا ٠

ولكن كيف يعزف عن علم وفن ، وعن آداب ، لأنها شرقية أو غربية ٠ أو كيف يعزف عن عادات قوم وأساليب عيش ، اقتضاها ذلك العلم وذاك الفن ، اقتضتها تلك المدنية عامة ، لانها اصطناعية ، فى حين أن العلم ، الذى يمجده اليوم كل أهل الأرض ، أبعد مايكون عن فطرة ٠

وان تكن البداوة أقرب شىء الى فطرة ، فالعلم أبعد شىء عن بداوة ٠ وهو لو عاش فيها لمات ليومه ، لأن العلم اصطناع بدأ ، اصطناعا ولاينتهى الا عند اصطناع ٠

كل ما أنتجه الفكر الفطرى فطرة ٠

ثم ما هذه الفطرة التى يتحدثون عنها ، ويزجون بها فى النقاش تعزيزا لكراهة ؟ !

انى أعود فأقول ان كل هذه الأشياء التى سميتها مصطنعة انما هى أشياء فطرية ، فطرها العقل الانسانى ، وأى شىء كالعقل فى الانسان يمكن أن يكون فطرة ٠

وكل ما فطر العقل فهو فطرة ٠ مآكلنا ، وملابسنا ، ومساكننا ، وعلمنا ، وفننا ، وعاداتنا ، مهما بلغت من درجات فى مدنية ، فهى فطرة ، لأن العقل فطرها ٠ فان أنت سميتها مصنوعة ، فذلك لأن الفطرة صنعتها ٠

ومدارسنا ، تلك التى بدأنا بها الحديث ، وسميناها مصنوعة ، هى من تنظيم العقل الانسانى ، ومن ترتيبه ، وهى بعض حيلته ، فهى من انتاج تلك الفطرة الأولى التى هى فكر الانسان ، وفطنته وذكاؤه ٠

***

حكمة رائعة

على باب أحدى الكنائس فى أمريكا سجلت هذه الكلمة الرائعة « كثير من الناس يشعرون بالوحدة والوحشة ، ذلك لأنهم يشيدون جدرانا بدلا من اقامة جسور » ٠